نور السموات والأرض ، ونطقت من حقيقةِ قلبها بالاسم الأعظم الذى يجعل النفس منيرةً تتلألأ حتى وهى فى أحزانها

ثم استقبلت خالق الرحمةِ فى الآباء والأمهات ! وفى مثل إشارة وداع من مسافر انبعث به القطار ، ألقت اليهم تحيةً من ابتسامتها ، وأسلمت الروح !

— ٤ —

يا لعجائب القدر ! مشينا فى جنازة العروس التى تُزَفُّ إلى قبرها طاهرةً كالطفلة ولم يباركْ لها أحد ! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرتُ على حائطٍ فى الطريق ، إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذى يصيح للأعين ؛ إعلاناً قديماً عن رواية هذا هو اسمها : « مبروك . . . ! »

واخترقنا المدينةَ وأنا أنظر وأتقصى ، فلم أرَ هذا الاعلان مرةً أخرى ! واخترقنا المدينة كلها ، فلما انقطع العمرانُ وأشرفنا على المقبرة ، إذا آخر حائطٍ عليه الاعلان : « مبروك . . . ! »

طنطا مصطفى صادق الرافعى

ظهر حديثاً كتاب :
فى أصول الأدب
فى ٢٢٠ صفحة بقلم
احمد حسن الزيات
يطلب من ادارة مجلة الرسالة
٣٢ شارع المبدولى – القاهرة
ومن سائر المكاتب وثمنه ١٢
قرشاً صاغاً خلاف أجرة البريد

صفحات من الدبلوماسية الاسلامية

السفارات الخلافيـــة والسلطانية

وعلائق الاسلام والنصرانية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمـــة

لما تولى المعتصم الخلافة عقب وفاة أخيه المأمون ، حاول قيصر قسطنطينية الأمبراطور تيوفيـلوس (توفيل) أن يعقد الهدنة والصلح مع المسلمين ، فأوفد الى المعتصم سفارة على رأسها يوحنا النحوى . وكان يوحنا من أعظم علمـاء عصره ، يجيد العربية ، فقصد إلى بغداد يحمل أنفس الهدايا والتحف ، وأنزل بأحد قصور الخلافة ؛ وأدهش البـلاط برائع بذخه ، وما نثر حوله من مظاهر الفخامةِ والترف . وتعرض لنا الرواية البيزنطية قصصاً عجيبة عن بذخ يوحنا وفخامته . وكان لهذه السـفارة غاية مزدوجة : الأولى أن تعقـد بين الخليفة والقيصر معاهدة سلام دائم ؛ والثانية أن يعمل السفير على إقناع منويل ، وهو قائد بيزنطى يلوذ ببـلاط الخليفة ، بالعودة إلى قسطنطينية . فأفلح السفير فى تحقيق الثانية ، ولم يفلح فى تحقيق الأولى ؛ ولـكن المعتصم رأى أن يجامل القيصر بالأفراج عن مائة من الأسرى النصارى . وعلى أثر هذا الفشل فى عقـد الصلح ، زحف الأمبراطور على اراضى المسلمين ، وغزا زبطرة من معاقل الحدود الأسلامية ، وكان الروم يزعمون أنها مسقط رأس المعتصم ؛ فاستولى عليها واستباحها وأنزل بسكانها المسلمين رائع الاثم والسفك ؛ وتروى التواريخ البيزنطية أن المعتصم لما علم بزحف الروم على زبطرة ، أرسل إلى الأمبراطور سفارة يرجوه فيها أن يفر المدينة العيث والسفك فأبى تيوفيلوس وارتـكب فيها ما ارتـكب ، وهدمها حتى صارت قاعاً صفصفاً

عندئذ قرر المعتصم الحرب وأقسم بالأنتقام وسار الى أراضى

الروم فى جيش ضخم ، وقصد إلى عمورية (أموريوم) أجل وأمنع مدن الروم فى آسيا الصغرى ؛ فهاجمها مراراً ، ولكن الروم دافعوا عنها دفاعاً شديداً ، فضرب حولها الحصار ، واعتزم ألا يغادرها حتى تسقط فى يده . عندئذ اضطر الأمبراطور أن يسعى إلى طلب الصلح ، وأرسل بدوره سفارة إلى المعتصم ، على يد أسقف عمورية وكبرائها ، فأعلن المعتصم أنه لن يعقد الصلح ، ولن يمنح شروطاً للتسليم ، وأن الأنتقام هو غايته واعتقل السفراء ، فاستمر الحصار خمسة وخمسين يوماً ، ثم سقطت المدينة فى يد المسلمين ، وأبدى المعتصم ، كما أبدى تيوفيلوس من قبل منتهى الشدة والقسوة ففتك بالنصارى فتكا ذريعاً ، واسترق الناجون من الموت ، وأحرقت عمورية حتى غدت أطلالاً ، وهدمت حصونها وأسوارها ؛ ثم أطلق المعتصم سفراء الأمبراطور بعد أن احتجزهم ليشهدوا ظفره ، وردهم اليه بهذا الجواب : « نبئوا سيدكم بأنى أديت دين زبطرة »[1] وكان ذلك سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م)

واستمر الصراع وتبادل الغزو بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية مدى قرن آخر . وفى عهد الامبراطور قسطنطين السابع الذى حكم طفلاً تحت وصاية أمه الامبراطورة زوى كاربوبسينا ، أرسل بلاط قسطنطينية الى الخليفة المقتدر بالله سفارة فى طلب المهادنة وتنظيم الفداء . وتصف لنا الرواية الاسلامية حوادث هذه السفارة ، فتقول لنا إن سفيرى ملك الروم وصلا الى بغداد فى المحرم سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) ، فاستقبلا بترحاب وإكرام ، ودخلا على الوزير فى أنخم حفل ونظام ، وقد اصطف حوله الجند فى أتم سلاح وزينة ، وأديا رسالة قيصر ، ثم أخذا الى الخليفة المقتدر فاستقبلهما ومن حوله الوزراء والقادة والجند فى أروع زينة وأبهة وأديا رسالتهما ، فأجابهما الخليفة الى ما طلب قيصر من تنظيم الفداء ، وسير خادمه مؤنساً ليحضر الفداء وعينه أميراً على كل بلد يدخله فيتصرف فيه على ما يريد حتى يغادره ، وسير معه قوة من الجند ، وزوده بمائة ألف وعشرين ألف دينار لافتداء الأسرى المسلمين ، فقام مؤنس بالمهمة وافتدى آلافاً من الأسرى[1] وكانت مسألة الفداء مبعث طائفة من السفارات التى تبودلت بين الدولتين خلال القرن الثالث الهجرى ، وطائفة من المعاهدات السلمية التى عقدت بينهما

وفى عهد الامبراطورة زوى أيضاً بعث حاكم كلابريا (قلوريه) البيزنطى رسله الى خليفة إفريقية الفاطمى (عبيد الله الشيعى) ؛ وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت بها الحكومة البيزنطية أن تؤدى الى الخليفة الفاطمى جزية سنوية كبيرة ؛ نظير تعهده بحمل أمراء صقلية المسلمين على وقف الحرب والغزوات المستمرة فى قلورية ، واستمرت هذه المعاهدة مدى حين . وان كانت الجزية قد أنقصت خلال ذلك

* * *

ولنترك الآن علائق الدولتين العباسية والبيزنطية لنتحدث عن نواح أخرى من علائق الاسلام والنصرانية ، والسفارات التى تبودلت بينهما

لما قامت الخلافة الفاطمية بمصر ، غدت مصر منذ أواخر القرن الرابع ، قوة اسلامية جديدة تشترك فى قيادة الاسلام وتوجيهه فى المشرق . ولم تكن مصر قبل ذلك مركزاً هاماً للتجاذب السياسى بين الاسلام والنصرانية ، لأنها لم تكن أكثر من ولاية خلافية أو دولة ثانوية تظلها الخلافة العباسية بسلطانها الروحى . على أنه كانت ثمة علائق مستقلة فى هذا العصر بينها وبين الدولة البيزنطية زعيمة النصرانية فى المشرق . وأشهر ما انتهى الينا من أخبار الحوادث الدبلوماسية بين الدولتين فى تلك الفترة سفارة الامبراطور رومانوس الأول (ارمانوس) قيصر قسطنطينية الى محمد بن طغج الأخشيد صاحب مصر (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) ، ورد الأخشيد على هذه السفارة . وحمل كتاب الامبراطور الى الأخشيد رسولاه نقولا واسحاق ، وفيه يطلب الامبراطور تنظيم مسألة الفداء ، وتسهيل المعاملات التجارية لرسله فى البيع والشراء ، وعقد الصداقة المتبادلة بين الدولتين ، غير أن الامبراطور يعن فى نفس الوقت على الأخشيد بأن تنازل لمكاتبته مباشرة ، لأن مقامه كقيصر الدولة الشرقية يحتم عليه ألا يكاتب من هو دون الخليفة ، ولكنه مع ذلك قد خص

(١) Finlay; ibid; III-11

(١) ابن الأثير — ج ٨ ص ٣٤

الأخشيد بالمكاتبة لما نمى اليه من رفيع مكانته وحميد سيرته وفيض عدالته ورحمته . وقد رد الأخشيد على رسالة الامبراطور بكتاب شهير من إنشاء ابراهيم بن عبد الله النجيرمى ، وانتهت الينا صورته بأكملها . وفيه يرد الأخشيد على رومانوس بالشكر على ما أسبغ عليه من حمد ومديح ، ويقول : إنه مهما تكن منزلة ملك الروم فانه لا يرى بأساً أن يكتب اليه ، وقد كتب من قبل الى أقرانه ممن لا يرتفع الى منزلته ، فقد كتب القياصرة من قبل الى خمارويه بن أحمد بن طولون ، والى تكين مولى الخليفة وحاكم مصر وحدها ؛ وينوه الأخشيد بأهمية مكانته وضخامة ملكه وما لمصر من غابر الزمن من ملك باذخ ، وأنه يحكم الشام وفلسطين الى جانب مصر ، ويشرف على مكة منبع الاســـلام ، ومدينة الرسول ؛ وأنه لم يكن يحب أن يثير فى ذلك جدلاً أو ملاحظة لولا ما تقدم به الامبراطور . ثم يعبر الأخشـيد عن حمده وثنائه للأمبراطور لما يبديه نحو الأسرى المسلمين من الرفق والرعاية ، ويصرح باجابته الى ما طلبه من تنظيم الفداء ومبادلة الأسرى ، ومن عقد الصداقة المتبادلة ، ومن تسهيل المعاملات التجارية لرسله التجاريين[1] ، وقد صيغت هذه الرسالة الشهيرة فى أسلوب سياسى بديع يجمع بين حزم المخاطبة ، ورقة المجاملة . وفى صيغتها ومحتوياتها ما يلقى ضياء كبيراً على طبيعة العلائق بين مصر الاسلامية والدولة البيزنطية فى أوائل القرن الرابع الهجرى (أوائل القرن العاشر الميلادى)

وكانت الدولة الفاطمية خصيمة الدولة العباسية تنازعها زعامة الاسلام فى المشرق ؛ وكانت السياسة البيزنطية تتجه يومئذ إلى الضرب بين الدول الاسلاميـة المختلفة والاستفادة من تنازعها وتنافسها ؛ فلما تضاءل سلطان الدولة العباسـية ، وبرز سلطان السلاجقة فى المشرق ، اهتمت الدولة البيزنطية بمقاومة هذا الخطر الجديد ومصانعته ، وعملت على أن تكون محوراً للتجاذب السياسى بين هذه القوى الاسلامية المختلفة . وقد وقع بين مصر وقسطنطينية فى منتصف القرن الخامس ، حادث سياسى شهير يوضح لنا طبيعة هذا التجاذب ، هو ســـفارة المستنصر بالله بالفاطمى لبلاط قسطنطينية وما كان من أدوارها ونتائجها . ففى سـنة ٤٤٦ هـ

(١) راجع نص هـذه الرسالة بأكمله فى صبح الأعشى — ج ٧ ص ١١ — ١٨

(١٠٥٣ م) أيام الخليفة المستنصر بالله نكبت مصر بوباء ذريع استطال مدى أعوام ؛ واقترن الوباء بغلاء وقحط شديدين ، وأصيبت مصر بصنوف مروعة من الدمار والفوضى . وتعرف هذه النكبة فى تاريخ مصر « بالشـدة العظمى » . فأرسل المستنصر بالله (سنة ٤٤٦ هـ) إلى قسطنطين امبراطور قسطنطينية يطلب منه العون ، وأن يمده بالغلال والأقوات . ورأت السياسة البيزنطية فى ذلك فرصة سانحة لتحسين مركزها وعلائقها مع مصر ، التى كانت تهددها من البر والبحر ، فلبى الامبراطور الدعوى ، وتم الاتفاق على بذل العون المطلوب ؛ ولـكن قسطنطـين توفى قبل تنفيذه ، وخلفته على العرش الامبراطورة تيودورا ، واشترطت لمعونة مصر شروطاً أباها المستنصر ، واشتبك الفريقان فى معارك شديدة فى البر والبحر . وفى سنة ٤٤٧ هـ ، أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضى أبو عبد الله القضاعى ليحاول تسوية الخلاف ، فذهب إلى قسطنطينية ليحاول عقد الصلح مع بلاطها ، ولـكنه لم ينجح فى مهمته ، لأن السياسة البيزنطية آثرت عندئذ جانب السلاجقة الذين كثرت غزواتهم لأراضى الدولة ، ورأت أن تصانعهم وأن تسعى إلى مهادنتهم ، وسمح لرسول طغرلبك عاهل السلاجقة أن يخطب فى جامع قسطنطينية باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله . ولما وقف المستنصر بالله على ذلك رأى أن ينتقم بالقبض على أحبار القيامة (كنيسة قبر المسيح) فى بيت المقـدس ومصادرة تحفها وذخائرها ؛ واستمرت الخصومة بعد ذلك عصراً بين مصر والدولة البيزنطية[1]

وفى أيام الحروب الصليبية كثر تردد السفارات والمفاوضات بين مصر باعتبارها زعيمة الجبهة الاسلامية يومئذ ، وبين قادة الحملات الصليبية ، وكثر عقد العهود والهدن والمعاهدات . ولا يتسع المقام لاستعراض هذه المبادلات الدبلوماسية التى وصلت يومئذ إلى ذرى التشعب والاتساع ، والتى تملأ فراغاً كبيراً فى أخبار ذلك العصر ؛ ولـكننا نمثل لها بحادثين : الأول سفارة لويس التاسع (القـديس لويس) ملك فرنسا إلى سلطان مصر الملك الصالح حينما جاء إلى مصر على رأس حملته الصليبية (١٢٤٩م) وكتب إلى الملك الصالح باسم الأمم النصرانية يطالبه بتسليم مصر وينذره بالويل إذا أبى ؛ وكان الملك الصالح يومئذ مريضاً فى القاهرة ،

(١) راجع خطط المقريزى — الطبعة الأهلية ج ٢ ص ١٣٧

فتولى كاتبه بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر كتابة الرد ، وفيه يرد على الصليبيين وعيدهم وينذرهم بالانتقام ؛ والثانى سفارة من ملك فرنسا أيضاً إلى سلطان مصر يطالبه باعادة بيت المقدس إلى الفرنج ، وأن يفتح لهم ثغراً فى الساحل وتكون البلاد وولايتها وإدارتها مناصفة بين المسلمين والنصارى على أن يؤدى الفرنج لمصر نظير ذلك جزية سنوية ضخمة . والظاهر أن مرسل هذه السفارة هو فيليب الجميل ملك فرنسا ، وأن المرسل اليه هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأنها وردت إلى مصر فى أواخر القرن السابع الهجرى أو أوائل القرن الثامن . وقد نقلت إلينا الرواية الاسلامية تفاصيل الحادث دون أن تعين تاريخه ، وذكرت أن السلطان غضب لجرأة الفرنج حين أبلغ السفراء رسالتهم ، وذكرهم بنكبة دمياط ، وأنذرهم بالويل والثبور وردهم أقبح رد[٢]

وقد كانت مصر منذ الحروب الصليبية محور الدبلوماسية الاسلامية ومجمعاً للعلائق بين الشرق والغرب ؛ وكانت علائقها مع الأمم النصرانية متشعبة النواحى والأطراف ، فمن بلاط قسطنطينية إلى الدول الايطالية ـ البندقية وبيزا وجنوه ونابولى ـ إلى مملكة فرنسا ، وإلى اسبانيا النصرانية ؛ وتاريخ مصر فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر) حافل بأخبار هذه العلائق الدبلوماسية . وقد أورد لنا القلقشندى فى « صبح الأعشى » عشرات بل مئات من الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية التى تلقى أعظم ضياء على طبيعة هذا العلائق ومداها . ونكتفى فى هذا المقام أيضاً بالتمثيل ببعض السفارات النصرانية إلى بلاط القاهرة ؛ فقد أرسل قيصر قسطنطينية مانويل باليولوج سنة ٨١٤ هـ (١٤١١ م) كتاباً إلى الملك الناصر فرج ، على يد تاجر يونانى يدعى سورمش يؤكد ما كان بين والده (أى والد قيصر) وبين والد السلطان (الظاهر برقوق) من أواصر المودة والصداقة ، وبعث معهم عدة من البزاة هدية للسلطان ؛ ورجا السلطان فى كتابه أن يعامل الأحبار النصارى بالرفق والرعاية

ووردت على بلاط مصر سفارة أخرى فى نفس هذا العام (سنة ٨١٤ هـ) من « دوج » البندقية ميميكائيل ، وقدم السفير « نقولا البندقى » إلى السلطان ناصر فرج كتاباً من الدوج يبلغه فيه تحياته وثناءه على ما كان يلقاه التجار البنادقة من الرعاية وكرم الوفادة ، ولكنه يحتج على حبس بعضهم فى ثغر دمياط ، ويحتج بالأخص على ما وقع بالاسكندرية من القبض على « قنصل » البنادقة وأكابر التجار البنادقة ، وأحدهم إلى القاهرة مصفدين بالأغلال ، وينوه بأن هذه الأهانة إنما هى إهانة له بالذات (أى للدوج) ويرجو السلطان أن يعدل عن هذه السياسة إلى الرفق بالقنصل والرعايا البنادقة ، لتحصل الطمأنينة للتجار ويكثرون من التردد على مصر[١] . وهذه الوقائع التى يشرحها الدوج فى رسالته إنما هى حدث دبلوماسى محض ؛ وقد صيغت فى أسلوب رقيق ينم عما كان لمصر يومئذ من عظيم الهيبة فى نفوس الدول النصرانية ؛ وفيها يستعمل قلم الترجمة السلطانى كلمة « قنصل » ترجمة للكلمة الافرنجية المماثلة ، وهى كلمة ما نزال نطلقها اليوم فى اصطلاحنا الحديث على ممثلى الدول الذين يختصون بأعمال هذا المنصب

* * *

تلك طائفة متناثرة من السفارات الخلافية والسلطانية ، والموضوع مشعب الأطراف واسع المدى . بيد أن ما أوردناه من أحاديث هذه السفارات والرسالات المتبادلة يكفى لشرح كثير من خواص العلاقات الدبلوماسية فى تلك العصور . وهناك بالأخص ناحية أخرى من علائق الشرق والغرب والأسلام والنصرانية لم يتسع المقام للتحدث عنها : تلك هى علائق اسبانيا المسلمة (الأندلس) بأسبانيا النصرانية وبالأمم الفرنجية الأخرى ؛ فهذه العلائق وحدها تملأ صفحاً فياضة من تاريخ الدبلوماسية الاسلامية ؛ وقد كان عهد الخلافة الأموية بالأندلس عهداً زاهراً فى تنظيم هذه العلائق ففى عصر الناصر لدين الله ، ثم ولده الحكم المستنصر ، انهالت وفود الأمم النصرانية وسفاراتها على بلاط قرطبة ؛ فكانت تستقبل فى قرطبة فى أيام مشهورة ومراسيم شائقة بهرت أمم العصر وقصوره ؛ وكان تقاطرها على قرطبة فى ذلك العصر الذى بلغت فيه الأندلس ذروة العظمة والسلطان ، شاهداً بتطبيق هذه الخاصة التى أشرنا اليها فى فاتحة هذا البحث ، وهو أن اتجاه السفارات السياسية من الغرب إلى الشرق ومن الأمم النصرانية إلى الأمم الاسلامية كان فى معظم الأحيان شاهداً بتفوق الشرق والأسلام فى القوة والعظمة والسلطان

« تم البحث »

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢٣ و ١٢٤

(٢) راجع حوادث هذه السفارة فى صبح الأعشى ج ٨ صفحة ٣٦ و ٣٧